

المؤدبون المغاربة في بلاد الحجاز خلال العصر الوسيط

Almaghariba Children's teachers in the Hijaz during the Middle Ages

حسين شنيينة¹، محمد بن عزوزي²

¹ مركز البحث في العلوم الإسلامية والحضارة بالأغواط (الجزائر)، h.chenina@crsic.dz

² مركز البحث في العلوم الإسلامية والحضارة بالأغواط (الجزائر)، m.benazouzi@crsic.dz

تاريخ الإرسال: 2023 / 02 / 27 تاريخ القبول: 2023 / 03 / 26 تاريخ النشر: 2023 / 06 / 10

الملخص:

تعالج هذه الورقة البحثية قضية مهمة، تتعلق بفئة خاصة من المغاربة، هاجرت إلى أرض الحجاز، واشتغلت بوظيفة تأديب الصبيان؛ فانعكس ذلك على جميع مكونات المجتمع الحجازي، وتخرج على أيديهم الأعيان والنبلاء والعلماء والصلحاء... إلخ، حيث بورك في جهودهم أخذا وعطاء، وتأثرا وتأثيرا، وتفاعلا واندماجا، حتى عدوا من العناصر الفاعلة فيه في مختلف مجالات الحياة.

وتبرز أهمية وظيفة تأديب الصبيان في الحجاز، من جهة ما تقدمه من تكوين وتعليم وتربية لأجيال متعاقبة من الأطفال، كان لهم الدور البارز في مستقبل الحضارة الإسلامية، خاصة في جانب العلوم والمعارف المتنوعة، مما يؤكد القول بصحة وسلامة التعليم الابتدائي القديم.

الكلمات المفتاحية: مؤدب؛ أطفال؛ مغرب؛ حجاز.

Abstract:

This research paper deals with an important issue, related to a special group of Almaghariba, who migrated to the land of the Hijaz, and worked in the job of disciplining boys; This was reflected in all the components of the Hijaz society, and notables, nobles, scholars, righteous people... etc. were blessed in their efforts, giving and taking, influence and influence, interaction and integration, until they were counted among the active elements in it in various fields of life.

The importance of the job of disciplining boys in the Hijaz stands out, in terms of the formation, education and upbringing it provides for successive generations of children, who had a prominent role in the future of Islamic civilization, especially in the aspect of various sciences and knowledge, which confirms the saying of the validity and safety of the old primary education.

Keywords: teachers; children; Almaghariba; Hijaz.

مقدمة:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين؛ أما بعد:

فهذه ورقة بحثية مقدمة في المؤتمر الدولي الموسوم بـ "الحضور العلمي لمالكية المغرب الإسلامي في بلاد الحجاز خلال العصر الوسيط" والمنعقد بمركز البحث في العلوم الإسلامية والحضارة بالأغواط - الجزائر، حاولت من خلالها أن أسلط الضوء على فئة خاصة من المغاربة، الذين هاجروا إلى بلاد الحجاز واشتغلوا بوظيفة تأديب الصبيان، فكانت لهم منة عظيمة على جميع مكونات المجتمع، حيث تخرج على أيديهم الأعيان والأعلام والمفكرون ممن تقلدوا المكانة والرئاسة في الحجاز.

أهمية الموضوع: تكمن أهمية الموضوع من جهة تعلقه بوظيفة "تأديب الأطفال" أو فيما يسمى اليوم بمعاهد التعليم الابتدائي، التي كان لها الدور البارز في وفرة الإنتاج الفكري الهائل في كل حقبات التاريخ الإسلامي، وذلك فيما انعكس على أطفال المسلمين مستقبلا من حذق ومعرفة ومهارات

ومفاتيح، استطاعوا بواسطتها تجاوز القنطرة الكؤود فيما يتعلق بالملكة الفكرية والقوة العلمية، والمعروفة في الفكر الإسلامي بدرجة الاجتهاد.

إشكالية البحث: يسعى الباحث من خلال هذه المداخلة أن يقدم جوابا لسؤال محوري يتعلق أساسا بالمؤدين المغاربة ببلاد الحجاز، وهو كآآي: هل هناك أسماء مرقومة كنماذج لبعض المؤدين المغاربة ببلاد الحجاز تناقلت أخبارهم وأحوالهم المصادر التاريخية؟ وهل يمكن رصد بعض الجوانب التعليمية في مسيرتهم المهنية؟ ثم ما أثر ذلك على المجتمع الحجازي؟.

أهداف البحث: يهدف هذا البحث إلى ما يلي:

- * إعطاء صورة حية عن حياة المؤدين المغاربة مع بيان أحوالهم ومآثرهم، والتركيز على أثرهم في المجتمع الحجازي.
- * الاستفادة من التجربة المغربية الحجازية في طريقة التربية والتعليم .
- * بيان صحة التعليم الابتدائي القديم وتفوقه لدى المسلمين.

عناصر البحث: للإجابة على الإشكالية السابقة، وتحقيق أهداف البحث، سأعالجه من خلال العناصر الآتية:

-مقدمة.

1. تحديد مصطلحات البحث.

2. اهتمام المغاربة بوظيفة تأديب الصبيان.

3. مسرد بأسماء المؤدين المغاربة بالحجاز.

4. مراتب هؤلاء المؤدين.

5. أثرهم في المجتمع الحجازي.

-خاتمة.

1. تحديد مصطلحات البحث:

1.1 الحجاز: بكسر الحاء، مأخوذ من الحجز وهو الفصل بين الشيئين¹، وسميت ديار العرب قديماً بالحجاز؛ لأنها تفصل بين اليمن والشام، وقيل بين نجد وتھامة، وقد روي عن الشافعي أنه قال: "الحجاز مكة والمدينة واليمامة ومخاليفها كلها"² أي: قراها، علماً أن هذه المنطقة تكتسب مهابة ومكانة عظيمة في قلوب المسلمين، لكونها تتضمن البقاع المقدسة والآثار النبوية، وخاصة العاصمتين الدينيتين مكة والمدينة، حيث يهاجر الناس إليهما بنية التعبد والمجاورة وأحياناً طلباً للرزق أو العلم أو الأمن... لكونهما عاصمتي الدين الإسلامي، والقاعدتين الرئيسيتين في الحضارة الإسلامية ثقافياً وسياسياً واجتماعياً .

2.1 المغاربة: هم الأهالي الذين يقطنون بلاد المغرب الإسلامي، والمراد بلفظ المغرب هو كل ما يقابل المشرق من البلاد، أي: ما يقع إلى غرب عاصمة الدولة العربية الإسلامية، وقد حدّه ابن عذاري بقوله: "إن حد المغرب هو من ضفة النيل بالإسكندرية، التي تلي بلاد المغرب إلى آخر بلاد المغرب، وحدّه مدينة سلا"³، حيث يقسمه أهل التاريخ إلى ثلاثة أقاليم: المغرب الأدنى أو إفريقية، ويليّه المغرب الأوسط، ثم أخيراً المغرب الأقصى .

3.1 المؤدبون: جمع مؤدّب، وهو معلم الصبيان القرآن الكريم ومبادئ العلوم الأساسية كالعربية والحساب، إضافة إلى الآداب والأخلاق الإسلامية مع شيء من المهارات الضرورية كالخط والكتابة والاستخراج... فيهدّب بذلك نفوسهم ويذكّيها على الفضائل والقيم.

فإذا بلغ الصبي سن السابعة تخير له أبوه مؤدّباً عارفاً تقياً يعلمه مقابل أجره معلومة، ويبقى الصبي عنده تقريباً حوالي سبع سنين حتى يتقن حفظ القرآن وجملّة مختصرة من العلوم، ثم ينتقل بعدها إلى حلقات العلماء في المساجد والمدارس، ليحصل المستوى العالي بعد أن حصل المستوى الابتدائي والمتوسط، ويبقى على هذه الحال في طلب العلم إلى ما شاء الله....

لقد كان لهؤلاء المؤدّبين الفضل في تكوين وتخريج الأعيان والفضلاء، فيهم العالم والفقير والطبيب، والمؤرخ، والقاضي، والإمام المفتي... إلخ، حتى إن المتتبع لفهارس المكتبات والمدونات

العلمية في شتى الفنون والمعارف في تاريخ الحضارة الإسلامية، سيجد صعوبة كبيرة في إحصائها وعدّها، قد أخذت في مجال المعرفة بحظ وافر، وهذا يشهد له الأعداء قبل الأصدقاء، والسر في هذا كله يعود إلى صحة وسلامة مناهج التعليم الابتدائي، والمتمثلة في جهود المؤدبين المسلمين.

2. اهتمام المغاربة بوظيفة تأديب الصبيان.

يمكن أن نقول بكل فخر واعتزاز إن اهتمام المغاربة بوظيفة تأديب الصبيان، والحرص على وجودها في المجتمع، من أجل تعليم أولادهم وتربيتهم، كان مبكرا جدا، قد يعود إلى فجر الإسلام ببلاد المغرب، أي الأيام الأولى للفتحين الأوائل، روى الدباغ في معالم الإيمان أن غياث بن أبي شبيب قال: "كان سفيان بن وهب صاحب رسول الله ﷺ يمر علينا، ونحن غلّمة بالقيروان فيسلم علينا في الكتاب، وعليه عمامة قد أرخاها من خلفه"⁴، ولا يخفى أن دخول سفيان بن وهب إلى إفريقية كان خلال عام 78هـ، في خلافة عبد الملك بن مروان، فيستفاد من هذا الخبر أن تأديب الصبيان، والاهتمام بتعليم الأطفال كان مبكرا جدا، وهذا يدل على سبق المغاربة في هذا الشأن.

وهنا تجدر الإشارة إلى أن أغلب المؤدبين المغاربة كانوا من الأعيان والأشراف والوجهاء، الذين حظوا باحترام واسع في المجتمع المغربي كأبي علي شقران بن علي الهمداني⁵، المؤدب، فقد كان من الطبقة العالية من فقهاء إفريقية وعبادها، ومنهم أيضا "حسنون الدباغ" المعروف بابن زبيبة⁶، وقد كان من القراء الكبار، ومنهم الشيخ الصالح العارف بالله أبو إسحاق الجنباني⁷، ومنهم كذلك الولي الصالح الشيخ محرز بن خلف⁸، المؤدب الشهير، ومن عنايته بتربية تلاميذه أنه كاتب عالم إفريقية في وقته ابن أبي زيد القيرواني —وهو ابن خالته— يطلب منه تحرير موجز في الضروري من علوم الدين، فكتب عبد الله ابن أبي زيد رسالته المشهورة التي يقول في مقدمتها: "أما بعد؛ أعاننا الله وإياك على رعاية ودائعه وحفظ ما أودعنا من شرائعه فإنك سألتني أن أكتب لك جملة مختصرة من واجب أمور الديانة مما تنطق به الألسنة وتعتقد القلوب وتعمله الجوارح وما يتصل بالواجب من ذلك من السنن من مؤكدها ونوافلها ورغائبها وشيء من الآداب منها وجل من أصول الفقه وفنونه على مذهب الإمام مالك بن أنس رحمه الله تعالى وطريقته مع ما سهل سبيل ما أشكل من ذلك من تفسير الراسخين وبيان المتفقهين لما رغبت فيه من تعليم ذلك للوالدان كما تعلمهم حروف القرآن ليسبق

إلى قلوبهم من فهم دين الله وشرائعه ما ترجى لهم بركته وتحمد لهم عاقبته فأجبتك إلى ذلك لما رجوته لنفسه ولك من ثواب من علم دين الله أو دعا إليه، واعلم أن خير القلوب أوعاها للخير وأرجى القلوب للخير ما لم يسبق الشر إليه وأولى ما عني به الناصحون ورغب في أجره الراغبون إيصال الخير إلى قلوب أولاد المؤمنين ليرسخ فيها وتنبههم على معالم الديانة وحدود الشريعة ليراضوا عليها وما عليهم أن تعتقده من الدين قلوبهم وتعمل به جوارحهم فإنه روي أن تعليم الصغار لكتاب الله يطفى غضب الله وأن تعليم الشيء في الصغر كالنقش في الحجر وقد مثلت لك من ذلك ما ينتفعون إن شاء الله يحفظه ويشرفون بعلمه ويسعدون باعتقاده والعمل به"⁹.

3. مسرد بأسماء المؤدبين المغاربة ببلاد الحجاز

إن المتصفح لكتب تاريخ الحجازيين وأخبار علمائهم وأشرفهم، وخاصة ما تعلق بموضوع تأديب الصبيان في الحرمين الشريفين مكة والمدينة، سيجد بعد التأمل والنظر الحضور المغربي واضحاً جلياً، حيث يلحظ القارئ أسماء رجال من أهل المغرب قضوا حياتهم في تعليم وتربية أولاد المسلمين، وقد كان لهم قصب السبق في هذا الميدان، تخرج على أيديهم العلماء والصلحاء وأرباب الوظائف الشريفة، مثل القضاة، والملفتين، والكتاب، والولاة... إلخ.

واليك مسرد ببعض أسماء المؤدبين المغاربة ببلاد الحجاز:

- أبو عبد الله الأنصاري القصري، محمد بن غصن (ت: 723هـ): نزيل المدينة المنورة، له مكتب قرب الحرم المدني جعله للتأديب والإقراء¹⁰.
- محمد بن عبد الله السبتي (ت: 720هـ): المغربي، ثم المدني، المالكي، قال ابن فرحون: إنه كان من قدماء المجاورين المقدمين في العلم والتعليم، وقال ابن صالح: "الشيخ، المؤدب، من طلبة أبي عبد الله القصري"¹¹.
- محمد بن ثابت الأنصاري المراكشي (ت: 749هـ)، مؤدب بمكة المكرمة، قال تقي الدين الفاسي: "كان يؤدب الأطفال بمكة عند باب أجياد من الحرم الشريف"¹².

- يوسف بن عيسى بن عياش التجيبي المالكي (ت: 749هـ)، المؤدب بالمسجد الحرام، كان يؤم بمقام المالكية، نيابة عن القاضي نور الدين النويري...¹³.
- يوسف بن علي بن سليمان القروي (ت: 764هـ): نزيل مكة، المؤدب بمكة المكرمة¹⁴.
- أبو حفص الوارقلي المغربي (في 767هـ): قال السخاوي: "عمر بن سالم بن بدر السراج: أبو حفص بن أبي النجا الوارقلي المغربي نزيل الحرم المدني والمؤدب"¹⁵.
- يوسف بن محمد بن محمد بن محمد بن عمران الطنجي (ت: 775هـ): المؤدب بمكة المكرمة¹⁶.
- رضوان المغربي: هاجر إلى المدينة ومعه زوجته فأقام يعلم الأبناء القرآن¹⁷.
- أيوب بن سليمان المغراوي المؤدب شيخ صالح جاور بالمدينة¹⁸.
- محمد بن محمد بن ميمون الجزائري، أبو عبد الله، المعروف بابن الفخار المدني، (ت: 801هـ)¹⁹، المؤدب بالمدينة المنورة.
- محمد بن محمد بن عبد المؤمن بن خليفة الدكالي (ت 823هـ)، أبو الفضل بن البهاء المكي، يلقب بالكمال²⁰.
- يحيى بن أحمد بن يحيى الزندوني (ت: 895هـ) ويُقال له أيضا الزنداوي المغربي المالكي نزيل المدينة²¹، قال السخاوي: "وفيها وقد زاد على خمس وسبعين بطيبة _أي سَنَة 875هـ_ نزيلها ومؤدب الأبناء بها، والمتفق على بركته وخيره فيها يحيى بن أحمد بن يحيى الزندوني المغربي المقرئ"²².

وهنا تجدر الإشارة إلى أن هؤلاء المؤدين على مستويات متفاوتة وأصناف مختلفة، منهم من أنشأ مكتبا خاصا به، ومنهم من التحق بأحد المكاتب وعمل بها، ومنهم أصحاب السواري والأسطوانات اتخذوها حلقات للتدريس والتعليم، ومنهم مؤدبوا الأعيان والأشراف، ومنهم مؤدبوا الأيتام... إلخ.

4. ترتيب المؤدبين:

سأحاول أن أذكر بعض الأعيان المشاهير في هذه الوظيفة ممن زاولوها ومارسوها، مع بيان أخبارهم وأحوالهم في ذلك، كالآتي:

1.4 المؤدبون بالمكاتب: الذين اتخذوا وظيفة "تأديب الصبيان" حرفة يقتاتون بها، حيث يتعلم فيها الصبيان مقابل أجر معلوم، حيث لم يتخرج هؤلاء من كسب المال بهذه الطريقة، لأن مذهب مالك جواز أخذ الأجرة على تعليم القرآن، وهو الشائع في المغرب العربي كله، حيث يتعلم الأطفال مقابل ما يدفعونه للمؤدب ويعرف باسم: "المعلوم"، علما أن هذه المكاتب هي أشبه بالخوانيت تكون بمكان مشتهر قرب السوق أو المسجد، يوجد فيها كل ما يلزم الصبي من أدوات وفراش وماء...، ذلك أن المحتسبين يمنعوهم من اتخاذ المساجد مكانا للتأديب، لأن الأطفال لا يتزهون عن النجاسات والقاذورات، إضافة إلى اللعب والعبث بالمسجد وأغراضه.

ومن أشهر هؤلاء المؤدبين الذين وصلتنا أخبارهم عن إنشاء مكاتب خاصة بهم، وعرفوا بذلك ما يأتي:

* يوسف بن علي بن سليمان القروي (ت: 764هـ): نزيل مكة، أنشأ مكتبا خاصا به يؤدب فيه الصبيان، يقع جهة الجانب الشامي من المسجد الحرام²³، يعينه في ذلك أحيانا زوج ابنته عبد المؤمن بن عبد الدائم بن علي السمنودي (ت: 807هـ)²⁴. قال عنه السخاوي: "عبد المؤمن بن عبد الدائم...ممن جاور بمكة سنين على طريقة حسنة يؤدب الأطفال"²⁵.

* محمد بن عبد الله السبتي (ت: 720هـ): المغربي، ثم المدني، المالكي، قال ابن فرحون: "كان مقدما في العلم والتعليم...وكان من قدماء المجاورين"²⁶، يعني بالمدينة المنورة، أنشأ مكتبا خاصا به، هو من أهم المكاتب يقع قرب المسجد النبوي، بلغ عدد طلابه ما يفوق مائة متعلم، ما بين صبي يفاع وصغير يراع²⁷، وهو في الحقيقة عدد كبير يصعب معه

التحكم في الصبيان، والغريب حقا أن أكثر تلامذته نجحوا وكان لهم شأن في المستقبل، حتى قيل: "إنه لم ينجب أحد من أبناء زمانه على يد غيره من المعلمين"²⁸.

لكن تشير المصادر التاريخية أنه اعتمد على سياسة التخويف والتهديد، كما رتب مكتبه بطريقة ذكية، تشبه تنظيم الجنود والعساكر، يقول ابن فرحون: "وكان في كتابه فجعل العرفاء فوق من دونهم، وقدم على كل طائفة واحدا منهم، وانتظم له سلك التعليم أكثره بالتخويف والتهديد"²⁹.

* محمد ابن غصن، أبو عبد الله الأنصاري القصري (ت 723هـ): قدم من تونس، فأنشأ مكتبا خاصا به بالقرب من المسجد النبوي³⁰، يؤدب فيه الصبيان مع جلسات الإقراء للكبار، وكان يخصص يوما للعامة والخاصة يلقي فيه مواعظه ودروسه في المناسبات، أخذ عنه أئمة وأعلام منهم البدر ابن فرحون وأخويه عبد الله وعلي، وكذلك مؤرخ المدينة المنورة الشمس محمد بن صالح الكناني صاحب "كتاب تاريخ المدينة"، الذي نقل عنه السخاوي كثيرا في كتبه ومؤلفاته، ويذكر أن ابن صالح لازم القصري حتى ظن الناس أنه ولده، وكان يقرأ له مواعيده³¹.

كما تشير المصادر التاريخية إلى أن بعض المؤدبين كانوا يزاولون هذه الحرفة في مكاتب أخرى، بمقابل مادي يتفقون عليه مع صاحب المكتب، مثل: محمد بن محمد بن عبد المؤمن بن خليفة الدكالي (ت 823هـ)، أبو الفضل بن البهاء المكي، يلقب بالكمال، قال الفاسي في العقد الثمين: "وأدب الأطفال بمكتب "بشير الجمдар" بالمسجد الحرام مدة سنين.... وكان طويلا غليظا"³² وقال السخاوي في الضوء: "وأدب الأطفال بمكتب بشير الجمدار بالمسجد الحرام عدة سنين"³³.

2.4 المؤدبون بالأساطين والأبواب: أي بالمسجد الحرام أو بالمسجد النبوي الشريف، وهي عبارة عن حلقات علمية خاصة لبعض الصبيان، يتعلمون فيها القرآن الكريم ومبادئ العلوم الشرعية مع بعض المهارات الأساسية كالخط والإملاء ونحو ذلك، والظاهر أن هذه الحلقات كانت في خفاء وستر، حتى لا يطلع عليها المحتسب والأعيان فيطردونهم من المسجد، من هؤلاء على سبيل المثال:

- محمد بن ثابت الأنصاري المراكشي (ت: 749هـ): كانت له معرفة بالقراءات السبع، قرأها على الشيخ برهان الدين المسروري، وسراج الدين الدمنهوري بمكة، قال تقي الدين الفاسي: "كان يؤدب الأطفال بمكة عند باب أجياد من الحرم الشريف" ³⁴.

3.4 مؤدبوا الخاصة: وهم مؤدبوا الأعيان والأشراف وأرباب الوظائف، يلتزمون معهم من أجل تعليم أولادهم وتربيتهم الأخلاق الحسنة، وذلك حتى لا يختلطون بأبناء العامة والسفلة من الناس، وهذا في مقابل جرايات تقدم شهريا لهؤلاء المؤدبين، ويبدو أن البعض جمع مالا عظيما بهذه الطريقة، لأن بعض الأعيان كان يعطيهم الشيء الكثير، ومن هؤلاء مثلا: يوسف بن عيسى بن عياش التحجبي المالكي (ت: 749هـ)، المؤدب بالمسجد الحرام، يقول الفاسي: "أدب أولاده مع جماعة من أولاد أعيان الحرم" ³⁵.

4.4 مؤدبوا الأيتام: الذين يعلمون اليتامى القرآن الكريم ومبادئ العلوم الضرورية، منهم من يقوم بذلك حسبة ابتغاء الأجر والثواب من الله تعالى، ومنهم من يجري عليه الأمراء والملوك والأغنياء جرايات مالية مقابل تعليم هؤلاء الأيتام، إضافة إلى وجود أوقاف كثيرة بالحرمين من أجل مساعدة الأيتام، والنفقة على المؤدبين، وتشترط عليهم الالتزام بأدق تفاصيل الواقف، فمثلا تشير وقفية مملوكية من مآثر السلطان الأشرف أن على المؤدب "أن يعلمهم ما يطبقون تعليمه، ويحتملون قراءته من كتاب الله العظيم، وما يحتملون تعلمه من الخط العربي..." ³⁶، وأمر السلطان بصرف أربعة آلاف وثلاثمائة وعشرين درهما للمؤدب في كل سنة سبعمائة وعشرون درهما، والباقي وهو ثلاثة آلاف وستمائة درهم، لكل يتيم منهم في كل سنة ثلاثمائة وستون درهما، غير نفقته وكسوته ولوازمه.

5. أثر المؤدبين المغاربة في بلاد الحجاز:

لقد أثمر جوار هؤلاء المغاربة المؤدبين ببلاد الحجاز كل خير وفضل، بورك في جهودهم قربة وطاعة، وأخذوا وعطاء، وتأثروا وتأثروا، وتفاعلا واندماجا، احتضنتهم البقاع المقدسة، ووفرت لهم ما أملوا ورغبوا فيه، وحققت لهم ما راموا وقصدوا، فاندمجوا في محيطها حتى عدوا من العناصر الفاعلة فيه، في مختلف الصعد ومجالات الحياة المتنوعة.

1.5 تكوين الأعيان والعلماء:

لقد اهتم المغاربة المؤدبون إضافة إلى العبادة والتنسك بنشر العلوم والمعارف، وكان لهم أثر بارز في تكوين كثير من الأعيان والنبلاء، الذين شغلوا مناصب ووظائف مهمة في المجتمع، وتخرج على أيديهم الكبار من رجالات العلم والمعرفة، وإليك بعض النماذج والأمثلة فيما يأتي:

-مثلا: شيخ الإسلام أبو عبد الله القصري، الإمام المقرئ والمؤدب الشهير بالمدينة المنورة، تخرج على يديه جماعات من كبار العلماء الذين كانت لهم أياد بيضاء في كل مجالات الحياة، كمحمد بن صالح الكناني شيخ عمدة القراء ابن الجزري، وهو الإمام المقرئ الفقيه المؤرخ إمام وخطيب المسجد النبوي، لازم القصري ملازمة شديدة حتى اعتقد الناس أنه ولده، فأفرد لشيخه كتابا يعرف به، جمع فيه مناقبه وأخباره وجملته من فضائله، سماه "الدرة النفيسة الفصيحة في كرامات شيخ الصدق والنصيحة"، ومن تلاميذه كذلك الإمام العلامة أبو جعفر المطري (ت765هـ)، قال عنه ابن رجب "كان المطري حافظ وقته"، حيث أخذ عنه جماعة من الأئمة فيهم البرزالي والذهبي والحسيني... ألف كتابا ذكر فيه ترجمة طنانة لشيخه القصري، سماه "الإعلام فيمن دخل المدينة من الأعلام".

ومن تلاميذ القصري أيضا أسر علمية عريقة، كأ أسرة اليعمرين (آل ابن فرحون) التي أخذ بعض أفرادها عن القصري، كعبد الله ومحمد وعلي أبناء محمد ابن فرحون اليعمري الأبدي الجباني التونسي المدني، وكذلك البدر عبد الرحمن بن محمد ابن فرحون... إلخ، وقد كان لهذه الأسرة أثر بارز في الحجاز، حيث تولت القضاء والتدريس والإقراء والإفتاء في المسجد النبوي، قال عنه عبد الله ابن فرحون: "شيخنا الإمام العلامة الأستاذ المقرئ الولي المحقق السري، أبو عبد الله محمد بن غصن

القصري الأنصاري، جاور بالمدينة ثلاث مرات ... وكان عالم زمانه بالقراءات، مشهورا بالكرامات، قرأت عليه، وأخذت عنه، وجودت القرآن عليه، فرأيت من سني أحواله، ما لم أره في أحد من أقرانه³⁷.

ومن الأسر العلمية التي أخذت عن القصري أسرة القسطلاني المجاورة بمكة المكرمة، ومن أشهرهم إمام المالكية بمكة خليل بن عبد الرحمن القسطلاني (ت761هـ)، ومن الأسر كذلك أسرة الشكيلي من أولاد المدينة المنورة ومشاهير بيوتهم³⁸، وأخص بالذكر حميدان بن محمد بن مسعود الشكيلي (ت745هـ) ولي الحسبة بالمدينة وكان قارئاً ورئيساً بالمسجد النبوي، وقد اشتهر هذا البيت بحفظ القرآن الكريم والاهتمام به، قال ابن فرحون: "أصلهم من مكة، جدهم مسعود النجار... وله ذرية صالحة من أولاد وأولاد أولاد كلهم قراء"³⁹.

إضافة إلى المؤلفات العلمية المفيدة التي كان الطلبة يتنافسون في حفظها وشرحها، حيث كانت شبه مقررات في المدارس والكتاتيب، خاصة كتاب التقييد في القراءات، وكتاب "لمح الإشارات" وهو مختصر مفيد، اختصره الشيخ من كتاب "الكافي في القراءات السبع"، قال السخاوي عن هذا الكتاب: "... له موضوعات مفيدة منها اختصار الكافي في القراءات لم يسبق إلى مثله، صغير الحجم، غزير العلم، انتفع به الطلبة، وحفظوه"⁴⁰.

ومن العلماء المشهورين الذين حفظوا هذا المختصر إبراهيم بن الشيخ الدهماني من كبار أهل القيروان، يقول السخاوي: "حصل القرآن وحفظ فيها —أي المدينة— كتاب أبي عبد الله القصري وفهمه ثم رجع إلى بلده ونفع الناس هناك"⁴¹، ومنهم كذلك الشيخ الصالح أبو عمرو عثمان الزواوي قدم المدينة وسمع من القصري، فحفظ القرآن وكتاب "النصح الحثيث بما صح من الحديث" لأبي عبد الله القصري⁴²، ومنهم أيضا علي أبو الحسن القفصي، هاجر إلى المدينة فتفرغ للعبادة وطلب العلم، واشتغل بأخذ القراءات على قراء مكة والمدينة، قال السخاوي: "حصل القراءات السبع، وحفظ فيها كتاب أبي عبد الله القصري فيها، ورجع إلى بلده ونفع الناس هناك"⁴³... إلخ.

ومن مشاهير المؤيدين المغاربة الذين كانت لهم مزية كبيرة على بلاد الحجاز، محمد بن عبد الله السبتى المدني، وهو من تلامذة أبي عبد القصري، بورك له في تلاميذه وطلبتة ما بورك لشيخه، يقول

ابن فرحون: "كان مقدما في العلم والتعليم، معلمنا الشيخ محمد السبتي... وله على أولاد المجاورين بل وأهل المدينة، يد طولى ومنة عظيمة في تعليمهم القرآن، وإن قلت: إنه لم ينجب أحد من الأولاد في زمانه على يد غيره من المعلمين فلست من الكاذبين" ⁴⁴، ويقول عنه ابن صالح -مؤرخ المدينة المنورة: "الشيخ، المؤدب، من طلبة أبي عبد الله القصري، ختم عليه القرآن جم غفير من أكثر أولاد المجاورين، وقرأ عليه يعقوب بن جمال (هو يعقوب بن جمال القرشي الهاشمي المقرئ قاضي المدينة)، وأخوه يوسف، والبدر بن فرحون وإخوته وأولاد الشكيلي الكبار وقرأت عليه ثلاثة أرباعه" ⁴⁵.

-وكذلك الحال بالنسبة للمؤدب الشهير يحيى الزندوني المغربي المألقي نزيل المدينة المنورة، يقول السخاوي عنه: "ثم قدم المدينة فقتلها وتصدى فيها لإقراء الأبناء أيضا، فقرأ عليه من أهلها طبقة بعد طبقة، وانتفع به في ذلك" ⁴⁶.

2.5 التصوف والعرفان: ذلك أن أكثر شيء التزم به المغاربة في ذلك الوقت، هو مجاهدة النفس من أجل الصفاء الروحي والترقي في مقامات العرفان، وقد ظهرت على أيديهم كرامات وأحوال، تنبئ عن كرم الولاية وصدق المحبة، وهذا ما انعكس على المريدين والتلاميذ وخصوصا الأطفال، ومن المعلوم أن الصبي يدين على دين معلمه، لأن الفتحة والتوفيق يكون غالبا بسببه، قال أبو عبد الله محمد بن حمدون الفاسي: "وغالب من يشار إليه من علماء الظاهر، ممن له تميز وشفوف ونبوغ في الحفظ والإتقان، إنما نال بمخالطة بعض العارفين كابن شريح بمخالطة الجنيد، والعز بن عبد السلام بمخالطة أبي الحسن الشاذلي، والتقي بن دقيق العيد بمخالطة أبي العباس المرسي" ⁴⁷.

-ففي ترجمة أبي عبد الله القصري المؤدب سابق الذكر يذكر ابن فرحون أنه صاحب كرامات ومكاشفات، وله أحوال عجيبة تأثر بها الناس، وكان مجاب الدعوة قل ما تخطئ، وإذا أخبر بشيء مستقبلي وقع لا محالة، كأن له هاتفا من السماء يخبره بذلك، وقد كان أهل المدينة يطلبون منه الموعدة والنصيحة، فخصص له يوما في الأسبوع لأجل ذلك.

-وفي أخبار محمد السبتي المؤدب، يقول ابن فرحون: "وكان يقول للصبيان: أنت تكون ظالما، وأنت تكون فقيها... فما يتعدى أحد منهم فيما علمت ما توسم فيه" ⁴⁸، ويقول أيضا: "كانت له

فراصة عظيمة في الولدان، حتى إنه ليقول للواحد منهم: أنت كنت في مكان كذا، وفعلت كذا وكذا، فيكون ذلك حقا!! وكان يهاب في غيبته أكثر من حضوره" 49 .

ومن مكاشفاته أيضا ما روي أن الطواشي شفيعا الكرموني⁵⁰ جاء إليه يوما فقال له : إن عمار الحرم قد فقدوا مربعة خشب مدهونة يكون قدرها ذراعا في ذراع، وما نطن أخذها إلا بعض الأولاد، فقال: اذهب فستأتيك إن شاء الله، ثم قال لنا: اقرؤوا وارفعوا أصواتكم، ففعلنا، ثم قال لنا: اسكتوا، فسكنا، فقال: قم يا حسين فائت بالمربعة، فقال: ما أخذتها وجعل يبكي، فقال له: اقرأ على حالك، ثم دعا بعض الأولاد، وقال له: امض إلى بيته وقل لأهله: حسين يقول لكم: ابعثوا لي المربعة التي أتيتكم بها البارحة، فما كان إلا قليلا إذ جاء بها، وهو ينظر فبهت فضربه، ثم أمر جميع الصبيان فضربوه، ويقول ابن فرحون: "وكانت له فراصة قل أن تخطئ" 51 .

— كذلك ما ذكره السخاوي عن ابن الفخار الجزائري المؤدب السابق عن خليل بن هارون الجزائري — نزيل مكة — غير مرة، عن شخص يقال له الحسن المريني — أثني عليه الشيخ خليل، ووصفه بصلاح وخير — أن الشيخ أبا عبد الله بن الفخار هذا، كان إذا لقيه قال: ما لي أراك مخروطا؟ قال المريني: فقلت في نفسي: كأنه يكاشفني، فعزمت على امتحانه، وخرجت في الليل إلى باب منزلي عريانا، واستغفرت الله تعالى، فلما أصبحت، غدوت إلى الشيخ أبي عبد الله ابن الفخار، فلما رأيته أعرض عني، قال: فقلت له: إيش جرى؟، قال: تخرج إلى باب منزلك عريانا؟ قال: فاستغفرت الله تعالى، وقلت: لا أعود. قال: فقال لي: لولا الأدب مع الشرع، لأخبرت ما يصنع الإنسان على فراشه؟، يقول تقي الدين الفاسي: "هذه الحكاية كتبها من حفظي، بالمعنى الذي حدثني به الشيخ خليل بن هارون، وفيها منقبة للشيخ أبي عبد الله بن الفخار، وكان من العلماء العاملين الصالحين الأخيار" 52 .

3.5 في الجانب الاجتماعي:

تذكر المصادر التاريخية عن هؤلاء المؤيدين المغاربة أن لهم مشاركات جميلة تتعلق بالجانب الاجتماعي والإنساني، منه مثلا الإحسان إلى الفقراء والضعفاء، والقيام على الأيتام والأرامل، كما لهم مشاركة في الأعمال الخيرية والتطوعية، بالحرمين الشريفين، فيذكر مثلا عن يوسف الطنجي

المؤدب بمكة المكرمة أنه كان كثير الإحسان إلى الضعفاء والفقراء، حتى لقب بشيخ الفقراء⁵³، إضافة إلى سعيه في عمارة "رباط ربيع" بمكة، يقول الفاسي: "وعمل فيه صهريجا من ماله، وبيض الرباط، وعمر فيه أماكن"⁵⁴، علما أن هذا الرباط يسكنه الصالحون، وقد كان أهل الحجاز كما يقول ابن بطوطة يعظمونه تعظيما شديدا، ويندرون له النذور والأوقاف⁵⁵...

ويذكر عنهم أيضا في مجال الرقية والعلاج أنهم كان لهم أثر واضح، فيذكر ابن فرحون عن محمد السبتي المدني المؤدب أن الناس كانوا يزدحمون عند بابيه لطلب التداوي والعلاج، فكان يتخذ الحجاب لأجل ذلك، والغريب حقا أن هؤلاء الحجاب اشتهر عنهم النفع كذلك، ومن أحواله أنه كان يعزم على الجان ويستحضرهم، يقول ابن فرحون: "فيأخذ ورقة على طول المصروع فيكتبها له ويلقها عليه فيبرأ من حينه"⁵⁶.

خاتمة البحث:

في نهاية رحلة البحث يمكن أن ننوه بجملة من النتائج المهمة في شكل نقاط مختصرة كالاتي:

- تعد وظيفة تأديب الصبيان حلقة مهمة من حلقات التعليم والتكوين في الحضارة الإسلامية.
- أسهم وجود هذه الفئة في تخريج وتكوين العديد من الأعيان والنبلاء بأرض الحجاز.
- انعكست مشاركتهم وتفاعلاتهم خيرا على جميع ميادين الحياة اليومية حيث مست مختلف شرائح المجتمع الحجازي.

كما نؤكد في ختام هذا البحث على جملة من التوصيات التي نرجو أن تحقق في مستقبل الأيام، وهي كما يلي:

- إعطاء وظيفة تأديب الصبيان حقه من البحث والتنقيب حتى تكتمل الفكرة، حيث يمكن الاستفادة من تجارب السابقين .
- من الضروري تسليط الضوء على بعض المؤدبين الكبار في التاريخ الإسلامي من أمثال أبي إسحاق الجنباني ومحرز بن خلف التونسي وأبي عبد الله القصري...إلخ.

- عقد مؤتمر دولي حول معاهد التعليم الابتدائي في الحضارة الإسلامية.

مراجع البحث:

- * ابن فرحون، عبد الله، نصيحة المشاور وتعزية المجاور، تحقيق: حسين محمد علي شكري، دار الأرقم، بيروت، د.ط.
- * السخاوي، شمس الدين، التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة، مطبعة طرابزوني الحسيني، المدينة المنورة، ط1979م.
- * الفاسي، تقي الدين، العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين، تحقيق: محمد حامد الفقي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط2=1986م.
- * السخاوي، شمس الدين، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، مكتبة الحياة، بيروت، د.ط.
- * الأنصاري، عبد الرحمن، تحفة المحبين والأصحاب في معرفة ما للمدنيين من الأنساب، تحقيق: محمد العروسي المطوي، المكتبة العتيقة، تونس، ط1=1970م.
- * ابن بطوطة، محمد، رحلة ابن بطوطة (تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار)، أكاديمية المملكة المغربية، الرباط، ط1417هـ.
- * المقرئزي، تقي الدين، درر العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة، تحقيق: محمود الجليلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1=2002م.

هوامش البحث:

- ¹ ينظر: ابن منظور، محمد، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط3=1414هـ، 5/ 331 .
- ² الشافعي، محمد بن إدريس، كتاب الأم، دار المعرفة، بيروت، ط1990م، 4/ 187 .
- ³ ابن عذاري، أحمد، البيان المغرب في اختصار أخبار ملوك الأندلس والمغرب، تحقيق: بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، تونس، ط1=2013م، 1/ 26
- ⁴ الدباغ، عبد الرحمن، معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، تعليق: إبراهيم شبوح، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط2=1968م، 1/ 151 .
- ⁵ ينظر: المالكي، أبو بكر، رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية وزهادهم ونسأكلهم وسير من أخبارهم وفضائلهم وأوصافهم، تحقيق: بشير البكوش، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط2=1994م، 1/ 312 وما بعدها
- ⁶ ينظر: أبو العرب، محمد، طبقات علماء إفريقية، دار الكتاب اللبناني، بيروت، د.ط، ص64
- ⁷ ينظر: عياض، ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، تحقيق: محمد بن شريفة، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ط2=1983م، 6/ 245 .
- ⁸ نفسه، 7/ 264 .
- ⁹ ابن أبي زيد القيرواني، عبد الله، الرسالة، دار الرحاب، الجزائر، د.ط، ص5-6 .
- ¹⁰ ينظر: ابن الجزري، شمس الدين، غاية النهاية في طبقات القراء، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، د.ط، 2/ 47 ؛ والسخاوي، شمس الدين، التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة، مطبعة طرابزوني الحسيني، المدينة المنورة، ط1979م، 3/ 702 ؛ وكحالة، عمر، معجم المؤلفين، مكتبة المثنى، بيروت، د.ط، 8/ 224 .
- ¹¹ السخاوي، التحفة، 3/ 616 .
- ¹² الفاسي، تقي الدين، العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين، تحقيق: محمد حامد الفقي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط2=1986م، 1/ 435 .
- ¹³ نفسه، 7/ 489-490 .
- ¹⁴ نفسه، 7/ 488 .
- ¹⁵ السخاوي، التحفة، 3/ 330 .
- ¹⁶ ينظر: الفاسي، العقد الثمين، 7/ 495 .
- ¹⁷ ينظر: السخاوي، التحفة، 2/ 65-66 .
- ¹⁸ نفسه، 1/ 361 ؛ وأيضا الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، مكتبة الحياة، بيروت، د.ط، 2/ 331 .
- ¹⁹ ينظر: الفاسي، العقد الثمين، 2/ 326؛ والمقرئزي، تقي الدين، درر العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة، تحقيق: محمود الجليلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1=2002م، 3/ 169 ؛ والسخاوي، الضوء اللامع، 10/ 23 .
- ²⁰ ينظر: الفاسي، العقد الثمين، 2/ 313 ؛ والسخاوي، الضوء اللامع، 9/ 134 .
- ²¹ ينظر: السخاوي، الضوء اللامع، 10/ 222 .

- 22 السخاوي، شمس الدين، الذيل التام على دول الإسلام للذهبي، تحقيق: حسن إسماعيل مروة، مكتبة العروبة للنشر والتوزيع، الكويت، ط1=1997م، 2/ 586 .
- 23 ينظر: الفاسي، العقد الثمين، 5/ 364 .
- 24 نفسه، 5/ 519-520 .
- 25 ينظر: السخاوي، الضوء اللامع، 5/ 89 .
- 26 ابن فرحون، عبد الله، نصيحة المشاور وتعزية المجاور، تحقيق: حسين محمد علي شكري، دار الأرقم، بيروت، د.ط، ص163.
- 27 ينظر: السخاوي، التحفة، 3/ 617 .
- 28 نفسه، 3/ 617 .
- 29 ابن فرحون، نصيحة المشاور، ص 163 .
- 30 نفسه، ص 77.
- 31 نفسه، ص 81 .
- 32 الفاسي، العقد الثمين، 2/ 313 .
- 33 السخاوي، الضوء اللامع، 9/ 134 .
- 34 الفاسي، العقد الثمين، 1/ 435 .
- 35 نفسه، 7/ 489-490.
- 36 الفهر، محمد، (تطور الكتابات والنقوش في الحجاز في العصرين المملوكي والعثماني من القرن الثامن حتى القرن الثاني عشر الهجري)، رسالة دكتوراه، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، 1406هـ-1407هـ، ص 518.
- 37 ابن فرحون، نصيحة المشاور، ص 77 .
- 38 ينظر: الأنصاري، عبد الرحمن، تحفة المحبين والأصحاب في معرفة ما للمدنيين من الأنساب، تحقيق: محمد العروسي المطوي، المكتبة العتيقة، تونس، ط1=1970م، ص 173 .
- 39 ابن فرحون، نصيحة المشاور، ص186
- 40 السخاوي، التحفة، 3/ 704 .
- 41 نفسه، 1/ 152 .
- 42 نفسه، 3/ 173 .
- 43 نفسه، 3/ 275 .
- 44 ابن فرحون، نصيحة المشاور، ص 163 .
- 45 السخاوي، التحفة، 3/ 618 .
- 46 السخاوي، الضوء اللامع ، 10/ 222.
- 47 ابن حمدون، محمد، حاشية ابن حمدون على الدر الثمين شرح ميارة، دار الفكر، بيروت، د.ط، 4/ 1 .
- 48 ابن فرحون، نصيحة المشاور، ص164 .
- 49 نفسه، ص163 .

⁵⁰ وهو أحد المسؤولين بالمسجد النبوي.

⁵¹ ابن فرحون، نصيحة المشاور، ص 163 .

⁵² الفاسي، العقد الثمين، 2 / 327

⁵³ نفسه، 7 / 495 .

⁵⁴ نفسه، 7 / 495 .

⁵⁵ ينظر: ابن بطوطة، محمد، رحلة ابن بطوطة (تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار)، أكاديمية المملكة المغربية، الرباط،

ط 1417هـ، 1 / 392 .

⁵⁶ ابن فرحون، نصيحة المشاور، ص 164 .

